



رواية "امرأة من ظفار" للزبيدي: تسريد المسكوت عنه

**The novel "Woman from Dhafar" by Zubaidi: Narrating the Unspoken**

مبارك بن عيسى الجابري

الهيئة العمانية للاعتماد  
الأكاديمي (عُمان)

Mubarakaljabri@outlook.sa

## الملخص:

## معلومات المقال

اعتمدت السلطة السياسية جملة من القيود لإخفاء إرث ثورة ظفار والحرب التي دارت، وذلك في سياق التحكم في الخطاب الذي كان ينشأ ليؤسس الدولة الحديثة كما أراد بناءها السلطان قابوس بن سعيد، دولة لها طابع وحدوي بعيد عن التحزب السياسي أو الطائفي، فطمّر إرث تلك المرحلة تحت طي الكتمان طيلة فترة حكم السلطان قابوس؛ ولذا لا نكاد حتى وقت قريب نعثر عند الكتاب العمانيين إلا على كتابات قليلة اقتربت منها بالسرد المخيل.

تقارب هذه الورقة تجربة أحمد الزبيدي من خلال رواية "امرأة من ظفار" بوصف هذه التجربة أول تجربة في السرد العماني تناولت تلك المرحلة، فتتبع الورقة استراتيجيات بناء الخطاب في هذه الرواية لتخييل المسكوت عنه، بما في ذلك كيفية إسهام الخطاب في تشكيل سرد الثورة، في سياق يكون فيه تسريد المسكوت عنه مبررا للادب وحضوره، أي في سياق العلاقة المتبادلة بين خطاب هذا السرد والأيدولوجيا، سواء من جهة ما توفره له من فتح لممكّنات التخيل والتأويل، أم من جهة قدرته، أي الخطاب، على ملء "بياضات" سرد الثورة في المخيال الجمعي.

تاريخ الارسال:

2024/03/27

تاريخ القبول:

2024/05/01

## الكلمات المفتاحية:

- ✓ ثورة ظفار
- ✓ الأيدولوجيا
- ✓ الخطاب
- ✓ المسكوت عنه

## Abstract:

## Article info

Political power has subsequently adopted a series of restrictions to conceal the legacy of Dhofar revolution and war. This is in the context of controlling the speech that was established to establish the modern State as the Sultan Qaboos bin Saeed wanted to build: State of a unitary nature, far from political or sectarian partisanship. The legacy of that stage was destroyed under confidentiality throughout Sultan Qaboos' Thus. 'Until recently, only a few Omani writings tried to narrative that stage of Omani history by using imaginative narrative. This paper approaches Ahmed Zubaidi's experience through a novel "A woman from Dhofar" as the first experience in the Omani narrative to address that stage. The paper analyzes the discourse strategies for saying the unspoken in that stage of Omani history, including how the discourse contributed to shaping the narrative of the revolution as ait was the first discourse that tried to tell Dhofar revolution story, in a context in which telling the unspoken is justified the literature and its presence. That is, in the context of the interrelationship between this narrative's discourse and ideology. On the one hand, the imaginative narrative provides the novel with the multiple possibilities. On the other hand, that narrative gives it ability to fill revolution narrative blanks in the collective imagination.

## Received

27/03/2024

## Accepted

01/05/2024

## Keywords:

- ✓ Dhofar revolution
- ✓ Ideology
- ✓ Discourse
- ✓ Unspoken

## 1. مقدمة

شكّلت تجربة الزبيدي فاتحة للاقتراب من واحدة من أهم القضايا المسكوت عنها في تاريخ عُمان المعاصر: ثورة ظفار، وهي الثورة التي انطلقت عام 1965 على أيدي مجموعة من الشباب الظفاريين ضد حكم السلطان سعيد بن تيمور؛ للإطاحة به وطرده الإنجليز الذين كانوا دعامة حكمه (التكريتي، 2019، ص: 23)، متوسعة من هذا الطموح المحدود بأرض ظفار، إلى الطموح لتحرير كامل أرض عُمان، ثم إلى تحرير كامل الخليج العربي (ينظر: العكري، 2014، ص: 83 وما بعدها)!

ورث السلطان قابوس عبء مجابهة هذه الثورة بعد توليه الحكم خلفاً لأبيه عام 1970، فاتخذ لأجل ذلك سبيلين: فتح باب العفو لمن أراد الاستسلام وإلقاء السلاح (وزارة الإعلام، 2015، ص: 15)، واستمر من جهة أخرى في المجابهة المسلحة بدعم من عدة قوى خارجية، وسابق ذلك باحتواء الحاضنة الشعبية التي كانت الثورة تستند إليها، سواء بتلبية المطالب المادية، أم بإنشاء خطاب مضاد لخطاب الثورة، يستند إلى السياق الثقافي الراسخ في بيئة قبلية دينية.

نتيجة لذلك؛ استطاع السلطان قابوس القضاء على الحراك المسلح للثورة نهائياً عام 1976 (التكريتي، 2019، ص: 357)؛ بيد أن ذلك لم يكفل الاطمئنان إلى اختفاء خطابها، وبخاصة في المناطق الجبلية التي كانت حاضنتها الأولى في ظفار. (Skeet, 2000) (P.51)؛ وحينئذ اتخذت السلطة السياسية الجديدة بقيادة السلطان قابوس منحى مختلفاً للتعامل مع إرث الثورة، ينسجم مع مرحلة انتقال هذا الإرث من حيز الظهور إلى حيز الكتمان، أي انتقاله من الممارسة إلى الفعل بالخطاب، وبذا عمدت السلطة السياسية إلى مقاومة هذا الخطاب بلجم انتشاره، ثم بطمس ذكره تدريجياً، فأخفي تباعاً من الصحف المحلية التصريح بالحرب على "الشيوعية" التي ارتبطت بثورة ظفار، والانتصار عليها، كما غابت الكتابات التي تقارب مرحلة الثورة، ونحن وإن كنا لا نتوفر على مستند يثبت ممارسة إكراه من السلطة السياسية في حينه لتغييب مقاربة تلك المرحلة؛ إلا أن غياب توافر مثل هذه الكتابات كقيل بتقديم مؤشر دال على أنه تغييب لا غياب، وبخاصة أننا نتقصد هنا الإشارة إلى قرابة عقد من الزمن، منذ سقوط الثورة عام 1976، وحتى أول كتابة تقاربها: المجموعة القصصية (انتحار عبيد العماني)، 1985 لأحمد الزبيدي، هذا إضافة إلى أننا نعلم أن مجمل إصدارات الزبيدي، أول من قارب تلك المرحلة كتاباً، ظلت حتى اليوم ممنوعة من البيع في معارض الكتاب التي تقام في مسقط؛ لصراحة خطابها في تعاطيه مع مرحلة الثورة، كما أننا لا نكاد نتحصل على مقاربة لمرحلة الثورة، عدا مقاربة الزبيدي، حتى وقت متأخر، حتى على مستوى الكتابة المخيَّلة، وتجدر الإشارة هنا إلى علي المعمرى الذي يعد على المستوى السردى في عمان الكاتب الثاني الذي قارب تلك المرحلة، وقد يجد القارئ في رواياته شيئاً من نفس أحمد الزبيدي الذي جمعته به صداقة ممتدة، وكان المعمرى قد بدأ كتابته السردية بالقصص القصيرة، فأصدر مجموعته الأولى عام 1992؛ إلا أن أبرز منتج سردي له يتصل بالمرحلة التي نتقصدها هنا كان روايته: همس الجسور 2007، وبن سولع 2011.

بدأت، إذن، مقاربة ثورة ظفار بكتابة مخيَّلة، لا بكتابة تصرّح بمقاربتها تاريخياً أو فكرياً، وذلك في مسار يحاول فيه الخطاب أن يتوارى عن القيود المانعة، وبذا فإن هذه الورقة ستناقش في هذا الخطاب الكيفية التي يعالج بها اقترابه من تلك المرحلة، وبخاصة في علاقته مع الأيديولوجيا التي انبنت عليها، بوصف تلك الأيديولوجيا أيديولوجيا "يسارية" بشكل أولي، بغض النظر عن التحوّلات التي طرأت عليها، كما بغض النظر عن الوعي بها في الخطاب إنتاجاً أو استهلاكاً.

تتخذ هذه الورقة من رواية (امرأة من ظفار) 2013 مدونة للخطاب الذي تقارب؛ ذاك أنها تمثل ذروة المنجز السردى لدى الزبيدي، فتتكسر فيها جملة العناصر التي وردت متفرقة في باقي المنجز السردى، سواء من جهة الشخصيات المسردة، أم من جهة الملفوظات السردية التي تنتشر في جميع هذا المنجز، أم من جهة أن هذه الرواية تملأ بياضات علاقة الخطاب بالأيدولوجيا، فتتجلى أكثر وضوحاً، مؤكدة المسار الذي نريد لهذه الورقة، وتنتهج للتحليل أدوات تحليل الخطاب بما يناسب استقراء استراتيجيات تسريد المسكوت عنه.

## 2. الممارسة الخطابية

يفتح الخطاب مساره في هذه الرواية بعبئة دالة، يورد فيها مقولة حمورابي "لا يقدر على بلوغ النصر، إلا أولئك الذين يؤمنون بأنهم قادرون عليه"، موضحاً بهذه الفاتحة عددًا من معالم علاقته بالمتلقي في ممارسته الخطابية، فهو أولاً بإزاء علاقة حدية بين طرفين، تنتظم العلاقة بينهما وفق منطق الهزيمة والانتصار، ثم إنه ثانيًا يؤشر بها إلى خطاب موجه إلى الجماعة لا الفرد، فالقدرة على الانتصار مسندة إلى جماعة ذات وعي جمعي بالإيمان بهذه القدرة، ثم إنه يؤشر ثالثًا إلى منحى وعظي يستند إلى المحمول الدلالي للعلم "حمورابي"، نظير الموجّه/ المشرّع/ الخبير.

تحدد هذه العبئة شكل الممارسة الخطابية التي تتبعها رواية "امرأة من ظفار"، حيث إنه على الرغم من ضرورة تلقيها بكونها كتابة مخيلة، بسبب نوعها الخطابية؛ فإن هذه العبئة تقدم مبررًا لتلقي الرواية بوصفها خطابًا يتجاوز نوعه التخيلي، موجّهًا إلى جماعة المتلقين الذين يتحدد موقفهم منه بناء على افتراضهم لعلاقتهم به؛ إذ أن العلاقة مع كتابة مخيلة لن تكون بطبيعة الحال كذلك التي مع كتابة "حقيقية"؛ ولذا فإن أثر التلقي يختلف باختلاف مسار التلقي.

إضافة إلى ذلك؛ فإنه لا بد من الوعي بأن هذه الممارسة الخطابية التي تحتطها الرواية تقوم في سياق تقدم فيه للمتلقين خطابًا لا يمكن لغيرها أن يملأ بياضاته، وفقًا لما سبق أعلاه في المقدمة (ينظر مفهوم "موارد الأعضاء" في: فيركلف، 2015. ص: 103)؛ ولذا فإن هذا السياق يبرر أيضًا للمتلقي أن يوسع أفقه إلى أبعد من التلقي الذي ينبغي للكتابة المخيلة، وبخاصة حين يكون الخطاب خطابًا عن المسكوت عنه، سكوته بالإكراه، لا سكوته بتوصل إليه بفعل الإشباع وما يتلوه من اختيار.

لأجل ذلك؛ فإن المستهلك الرسمي لهذا الخطاب لن يكون قارئ الكتابة المخيلة فحسب؛ بل قارئ التاريخ أيضًا، ويبدو الخطاب واعيًا بوجود هذا المستهلك، بل لعله يجعله سابقًا على المستهلك الرسمي الأصلي؛ ذاك ما يمكن التذليل عليه من مساحة البوح المنتشرة عبر الخطاب، وهي المساحة التي يمكن تبينها عبر مسارين كبيرين فيه: مسار البوح الأيدولوجي، ومسار البوح التاريخي.

أريدُ بـ"البوح" هنا أن يعمد الخطاب إلى إيقاف السرد والتحول إلى الوصف، فيجيء الوصف تارة وصفًا لأيدولوجيا الثورة، كما يجيء تارة أخرى وصفًا مؤرخًا، دون أن يكون في مسار السرد ما يستلزم ذلك. نقرأ مثلاً في فاتحة الفصل (14) بداية تسريد: "كان الشحريسيعد حور "الأسود" عرافًا، قال:....." ثم انتقال بعد المقول مباشرة إلى التأريخ: "ففي التاسع من يونيو/ حزيران 1965 أعلنت جبهة تحرير ظفار، واندلع على الفور قتال ضار"، يتلو ذلك بعد سبعة أسطر تحول إلى وصف خطاب الثورة: "لم يكن خطاب

الثورة يختلف عن خطاب حركة التحرر الوطني الديمقراطي العربي بمفرداته القومية والدينية... " ثم بعد ثلاث فقرات من هذا الوصف يعود الخطاب إلى السرد: "انقطعت أخبار سعيد وأبي...". (الزبيدي، 2013. ص: 54-55)

تمثل المقطعات أعلاه نموذجًا مستمرًا في خطاب هذه الرواية، دالًا على وعي بأفق التلقي الذي يريد تليته، بسبب وعيه بمستهلكه الرسمي غير الأصلي، والذي سوغ حضوره المسترب التخييلي الذي يجده الخطاب للوصول إليه، في ظل محاولة الخلوص من القيود المانعة التي تحرم الاقتراب من المرحلة التي يقارنها الخطاب اقترابًا يكفل مقارنتها بنوع الخطاب المناسب لها، خطاب التأريخ أو خطاب التفكير النقدي.

يمارس خطاب "امرأة من ظفار" سلطته من خلال المعرفة (ينظر: فوكو، 2015) التي يوفرها، في سياقٍ عُيبت فيه المعرفة الأصلية أو جرى منعها، وبذا فإن الخطاب ينطلق في بث المعرفة التي يمتلكها عبر مساري البوح المشار إليهما، كما أنه بسبب هذه السلطة يجد ما يسوغ له انتقاله إلى مرحلة أخرى من مقاربة مرحلة الثورة، حيث يمكن للقارئ أن يتتبع في مواضع منه الانتقال من مجرد البوح بالأيديولوجيا أو التأريخ للثورة، إلى ممارسة سلطة النقد، نقرأ مثلاً بعد توقف وصفي طويل: "مُدّت ساحة المعركة فجأة من ظفار لتشمل الخليج العربي برمته... كان ذلك تطورًا غير واقعي، وسلوكًا استفزازيًا غير سياسي وغير عقلائي، وتحميلاً للجبهة ولشعب ظفول "ظفار" ما لا يستطيعه ولا يقدر عليه." (الزبيدي، 2013. ص: 69)، مستمرًا في ممارسة سلطته النقدية على مساحة ثلاث صفحات تقريبًا، قبل أن يعود إلى السرد.

يمكن أن نقرر عند هذه المرحلة بأن الممارسة الخطابية لـ"امرأة من ظفار" تعتمد على تقديم الخطاب لجماعتين مختلفتين من المستهلكين:

- السلطات الفارضة لقيود الخطاب: يفترض الخطاب في تلقيها أن يكون تلقيًا يعتمد على أساس النوع الخطابي الذي ينتمي إليه، أي بوصفه أدبًا مخيلاً لا يحيل إلى واقع إلا على صعيد الاستعارة.

- المتلقون "العاديون": وأريد بهم المتلقين الذين يستهلكون الخطاب بصفته الشخصية، لا بصفته الوظيفية، ويبدو من التحليل السابق أن الخطاب يتقصد لهؤلاء أن يتلقوه بوصفه خطابًا متداخلًا، يجمع إلى خطاب التخييل خطاب التأريخ والفكر؛ ليبي تسريداً للمرحلة المسكوت عنها.

ففي طريقة استهلاكه عند الجماعة الأولى ضمان لقدرته على التخلص من إكراهات المنع، وفي طريقة استهلاكه عند الجماعة الثانية مسرب للفعل وممارسة سلطة المعرفة.

### 3. بناء هويات الذات في الخطاب

اتضح مما سبق أن الخطاب يتأسس منذ عتبة نص "حمورابي" على بناء علاقة حدية تقوم بين ضدين: ذوات منتصرة، وذوات مهزومة، ويعتمد لإبراز هذه العلاقة على الاختلاف في الهويات التي يقدم بها الذوات المسردة، كما يعتمد أيضًا على بناء ثنائية لمفهومي الانتصار والهزيمة، بناء على علاقة هذه الذوات بأي منهما.

تقوم استراتيجية ضدية هويات الذوات على الفصل التام بين صنفين من الذوات، فيشكل كل صنف منهما هوية منسجمة مستقلة عن هوية الصنف المقابل:

الجدول 1: (صنفا الذوات)

الصنف الأول	الصنف الثاني
مثال، أبو مثال، الجار سعيد، فوطمت، سانلي، ميزون، ناجي سعيد، جعبوب، رغببيت، أحمد	علوان، أبو علوان (عقيد العسكر)، محببيت زوجة الجار سعيد، الرجل الإنجليزي

يمثل الصنف الأول في الرواية هوية الثوار، فيقدمهم الخطاب جميعاً وفق نموذج منسجم للهوية: ثوار، أحرار، مخلصون لمبادئهم، تتنامى شخصياتهم عبر السرد في مسار مقاوم لا يتغير على الرغم من التحولات التي مرت بها الحكاية في السرد، كما يلجأ الخطاب حال إنهاء نمو شخصية من هذه الشخصيات إلى إيقاف تسريدها عند قمة تمثل هوية ذات الثائر: "الاستشهاد".

يقدم الخطاب "مثال" نموذجاً أول لهوية ذوات الصنف الأول، فهي الشخصية الرئيسة التي يمثل نموها عبر السرد منذ ابتدائه إلى نهايته مساراً تاريخياً لتحول "الثورة"، ويقدم خطاباً قراءة فكرية لأيديولوجيا الثورة وخطابها وحراكها، كما أنها هي السارد الذي ينبثق منه مجمل خطاب الرواية، عدا بعض التوقفات التي يحيد فيها خطاب الرواية عن الالتزام بنوعه الخطابى، كما في الفصل (17) (الزبيدي، 2013. ص: 68-73) الذي تحول فيه الخطاب بتمامه إلى بوح تاريخي أيديولوجي.

يتخذ المسار السردى لهذه الشخصية/ السارد أربع تحولات سردية :

أ- سكون (البساطة)

ب- توتر (الثورة)

ت- سكون (الهزيمة)

ث- توتر (كمون الثورة)

يتنامى السرد في التحول من كل منها إلى الأخرى، مشكلاً خطاباً يعرض تشكل هوية الشخصية الرئيسة في علاقتها مع واقعها، فيما هو في الآن نفسه يتوسل هذا السرد للتأريخ للثورة ونقدها؛ ولتتبع ذلك يمكن الوقوف عند المعالم الآتية:

أ- سكون (البساطة):

يُفتتح الخطاب في الرواية ببناء السياق الاجتماعي الذي ولدت فيه الثورة، فيقارب المكان "جبال ظفار"، والمجتمع "الريفيون من رعاة البقر وراعيات الإبل"، والزمان "التداخل الزمني بين الحاضر وميثولوجيا ظفار (الإلهان واسلني وسانلي): ستينيات القرن المنصرم"، وتعرض

هذه المعالم مجملتها سياقاً اجتماعياً منسجماً لبقارة الحياة وبساطتها، مشروطاً بالعزلة عن الآخر/ السلطة القائمة، ويتوسل الخطاب لبناء هذه المرحلة بتسريد ساكنٍ خالٍ من التوتر، يمكن أن نقف على تركيز له في المقتطع الآتي:

" كان منزلنا عبارة عن غرفتين وفناء واسع، في الغرفة الواسعة المستطيلة كان أبي وأمي، وفي الغرفة الأخرى انحسرتنا أنا وإخوتي، كان كل شيء مشتركاً وأليفاً، وفي الفناء كنا نقضي معظم أوقاتنا نتبادل الأحاديث، وفي جلسات السمر كنا نرقص البرعة وطبل النساء." (نفسه. ص: 25)

يؤكد الخطاب انقضاء هذا السياق بتوظيفه للدال (كان)؛ عازلاً بين زمنه وزمن هذا السياق، وانطلاقاً من هذه المرحلة سيبدأ السرد في التوتر تدريجياً، بناء على المساحة التي يتيحها الخطاب لدخول النقيض الأيديولوجي (مضاد الثورة/ السلطة الرسمية/ الإنجليز والمتعاونون معهم).

ب- توتر (الثورة):

يقدم الخطاب شخصية (علوان) علماً على الآخر/ السلطة القائمة، ويبدأ مسار السرد في التوتر حال الاقتراب من هذا الآخر، فيصنع نقطة التحول بالجمع بين عَلم الصنف الأول (مثال)، وعَلم الصنف الثاني (علوان)، جمعاً ينطلق فيه هيئاً سهلاً مع تطعيمه بعدد من الدوال التي تبرر التحول القادم. نقرأ في بداية هذا الجمع:

" الآن وقد أصبح علوان مشروع زوج لي فقد بحثت عن إحساس ما نحوه فلم أعره عليه، ومع ذلك لم أحس بمشاعر سلبية نحوه، فقد كان علوان بحزام الرصاص المتر به والسكين في وسطه وبنديقية "الصمعة" التي يحملها على كتفه، وكونه عضواً في ميليشيا شبه عسكرية، مطلوباً ومحبوياً من بعض صديقاتي، فهذا الفتى الذي يفيض رجولة هو أيضاً ابن عقيد عسكر الوالي أحد أهم ذوي النفوذ في الولاية." (نفسه. ص: 28)

يمثل هذا المقتطع معلماً أساساً في تحول السرد من السكون إلى التوتر، فقد اتخذ الخطاب ما قبل هذا المقتطع مجالاً لتشكيل جزء مهم من الهوية التي ستبنى عليها ذوات الصنف الأول، بتقديم السياق الاجتماعي الذي تشكلت فيه، في حين يتخذ من نقطة التحول هذه بالاجتماع المشار إليه في المقتطع منطلقاً لبداية تشكيل هوية ذوات الصنف الثاني، وتالياً العلاقة الضدية التي ستحتد بين الصنفين.

يُسوّغ الجمع في هذا المقتطع بالزواج التقليدي الذي يجمع بين طرفين لا يكادان يعرفان بعضهما بعضاً، هذا على مستوى التسريد السطحي، أما على مستوى تسريد الخطاب فإن الزواج التقليدي هنا يرمز إلى جمع بين منظومتين منبتي الصلة ببعضهما بعضاً، تسند كل منهما جماعة معزولة عن الأخرى: منظومة "دولة الإنجليز/ سلطنة الظلام"، ومنظومة "شعب ظفار."

يصرح الخطاب في المقتطع بانعدام مشاعر الصنف الأول بنوعها تجاه الصنف الثاني، بمرر بداية اجتماع يغيب عنه أي تأدلج واضح من هذا الصنف، أي الصنف الثاني، على الرغم من وجود ثلاث علامات دالة في عَلمه (علوان) على اختلاف عن الصنف الأول :

- حزام الرصاص والسكين والبنديقية؛
- انتماؤه إلى ميليشيا شبه عسكرية؛
- أبوه عقيد عسكر في السلطة القائمة.

تقدم هذه العلامات مدلولاً صريحاً على هوية مختلفة عن الصنف الأول، فهي هوية مُعسّكة تتقصد المواجهة والسيطرة والحرب، بيد أن علم الصنف الأول (مثال) تظل حتى لحظة هذا المقتطع دون معالم واضحة لموقف حدّي؛ ذلك أن السياق الاجتماعي الساكن المشار إليه في حركة السرد الأولى لا يهيئ بصورة طبيعية للنزوع إلى موقف ضدي مع الآخر ما لم يتحرك هذا الآخر أولاً نحو هذا الموقف، وهو الأمر الذي ينطلق بالعبارة/ الأيقونة التي يطلقها (علوان) مباشرة بعد اجتماعه الأول بزوجته على فراش الزوجية، والتي سيظل يرددها حتى نهاية الرواية:

"إن ريح الشمال تغلب ريح الجنوب" (نفسه. ص: 31)

يرر السرد هذه العبارة بانتماء (علوان) إلى قبيلة بشمال عمان، وانتماء (مثال) إلى قبيلة بجنوبها، كما تجد العبارة عند التسريد السطحي في هذه المرحلة من القراءة منطقاً لها في العلاقة الزوجية (على السرير) التي تمت بين الطرفين بعد تمتع؛ بيد أن هذه العبارة تحديداً ستكون مركز الخطاب لتحريك توتره، فمنذ إطلاقها للمرة الأولى يبدأ مسار السرد في التحول نحو التوتر.

يمكن لحظ بداية مسار التوتر بالمدلول الذي تكفله في الصفحة الموالية مباشرة الدوال في ملفوظ (مثال): "وفي الصباح كان علي أن أطمعه وأسمع تبجحاته حول "رياح الشمال تغلب ريح الجنوب"" (نفسه. ص: 32)، فالإطعام من الذات الأولى يقابله التبجح بالغبلة من الذات الثانية، ها هنا تبدأ العلاقة الضدية بين صنفَي الذوات في الخطاب بصورة واضحة، وسنجد في المقتطع اللاحق لهذا التشكي ترميزاً بيناً للتحول الذي حدث من السكون إلى التوتر بمجرد الاجتماع بالصنف الثاني، نقرأ:

" فيما مضى من الأيام كنت أنام كما أشاء، وأستيقظ متى أشاء، كنت أجوب مرباط وأسهر وأرقص طبل النساء، وفي الليل أحلم بفارس يجوب بي الموانئ....، لم أعد أحس أنني حرة، أصبحت امرأة ذات بعل، بعل ثقيل وخطير كما نيزك سقط من سماء بعيدة." (نفسه. ص: 33)

يقدم المقتطع مقارنة صريحة بين حالين، ماض وحاضر، عزلة عن الآخر واجتماع به، حرية وقيود، فكل مدلول من هذه الثنائية يقابله ضدُّ تشكّل مع وجود الصنف الثاني (علوان)، ثم يصرح الخطاب بالمسار القادم يجعل الصنف الثاني ثقيلًا وخطيرًا ومدمرًا، بل وغريبًا أتى من سماء بعيدة منبئة الصلة بالأرض التي وقعت عليها فدمرتها .

لا يترك السرد مساحة كبيرة لبياض التأويل، فيصرح مباشرة في الصفحة التالية برمزية "رياح الشمال" على لسان (مثال) مخاطبةً (علوان): "فأما ربحك التي تدعيها فإنها عاصفة مزابل ونفايات لا قيمة لها.." (نفسه. ص: 33)، لينطلق التوتر بصورة أكثر وضوحًا في الفصل التالي، حيث تتكشف شخصية (علوان) حين يصرح بموقفه من أبي (مثال) المنتمي إلى ذوات الصنف الأول: "أبوك متورط". (نفسه. ص: 36)

يتأجج توتر السرد تبعاً بتوطد معرفة (مثال) ب(علوان)، ثم تصبح خيائته لها مع (حببت) المنتمية إلى الصنف الثاني نفسه سبباً ليندلق التوتر تمامًا متحرّكًا بسرعة نحو الثورة، فيستمر الخطاب طيلة 22 فصلاً من فصول الرواية في مقارنة الثورة تاريخيًا وفكرًا، مرة عبر توتر السرد، ومرة عبر توقعات البوح.

ج - سكون (الهزيمة):

ينتقل السرد إلى مرحلة السكون منذ الفصل (33) بوصول السلطان قابوس إلى الحكم، حيث يتوقف السرد قليلاً ليدخل الخطاب حيز البوح الذي يبرر الهزيمة التي يستفتحها:

"ورث السلطان الجديد إرثاً صعباً، دولة فيها حرب داخلية، وشعباً فقيراً، بلا مؤسسات، وبدون بنية أساسية، لا ماء، ولا كهرباء، ولا مدارس أو مستشفيات، ومجتمعاً عبثت به الأمراض وفتكت به الأوبئة" (نفسه. ص: 129)

يكشف الخطاب بهذا المقتطع بداية الانحدار نحو هزيمة الثورة ببداية خفوت مبررها الأساس: الحال القائمة في الدولة والمجتمع بفعل "سلطنة الظلام" بعد أن تحولت مع السلطان الجديد إلى خط إصلاح، مبرراً من جهة أخرى مساره النقدي لأيديولوجيا الثورة التي حاولت أن تجد في شعب بسيط يبحث عن لقمة العيش كوادراً أيديولوجية تستوعب ماركس ولينين وماو، وسيغدو الخطاب أكثر صراحة في مفتتح الفصل: (34)

" بعد سنوات من القتال المرير اتضح أن هناك مشروعين يتقاتلان: مشروع السلطان قابوس الإصلاحية الداعي إلى التسامح والإصلاح، ومشروع الثورة لتحرير الوطني الديمقراطي." (نفسه. ص: 130)

حيث ثمة تصريح بهوية جديدة للمعسكر المضاد للثورة، تسحب من الثورة ميكانيزماتها في ظفار، تلك التي كانت تغتذي بها بالحث على التعليم والإصلاح وتوفير العمل والمساواة بين الرجال والنساء (نفسه. ص: 100-122)؛ ولذا يدخل السرد ابتداءً من هنا مرحلة السكون بهزيمة الثورة، هزيمة يبررها السرد بالمصرح به في المقتطع أعلاه، كما يبررها بلجوء الخطاب إلى بوح ناقد للثورة يتخذ منحنيين: نقد البعد الفكري الذي حاول غرس نبات في تربة غريب عليها، ونقد البعد العسكري الذي اتخذته الثورة في فوضى القرارات الاستراتيجية التي حادت بها عن طريقها الأساس (نفسه. ص: 68-73).

د- توتر (كمون الثورة):

يبقى السرد (مثال) حية في سرد الثورة طيلة الرواية، فلا يجيد بها نحو الجنوح إلى الاستسلام أو هزيمة الروح النائرة التي يقدمها بها على الرغم من هزيمة الثورة نفسها واقعاً على أرض المعركة:

" ضاقت الأحكوب بي وبمطاردي، وحفيت قدمي من الترحال، ولم يعد هناك من يأبه لي، حتى الرفاق القدامى تحاشوني وبعضهم سخر مني، والأفضل منهم أرسل إلي بعض النقود مع اعتذارهم عن استقبالي لصعوبة المرحلة." (نفسه. ص: 161)

كما يُبقي على علاقتها متوترة بعلم الصنف الثاني (علوان) الذي تحول إلى جنرال كبير في عهد الحكم الجديد، فيبني الخطاب من كلا العلمين (مثال) و (علوان) رمزين لنموذجين في العالم الجديد: نموذج الدولة الجديدة المحمية بالعسكر والمخابرات، الغنية في مواردها المالية وعلاقتها بالإنجليز، ونموذج الثوار الذين أجبرتهم الهزيمة على التأقلم مع الحال الجديدة وكتمان نزوعهم الثوري؛ إذ في الوقت الذي يمارس فيه (علوان) بذخ السلطة والمال؛ تبني (مثال) حياتها الجديدة داخل المملكة المالية ل(علوان) نفسه/ شركته، من ناحية، ومن ناحية أخرى تنفصل عنه بالطلاق، لتتزوج بناجي رفيق الثورة، ثم توطد علاقاتها برفاق الثورة الذين يعيشون متكتمين داخل أراضي السلطة الجديدة، متحفزين لحراك آخر يعيد الثورة إلى مسارها.

يختتم السرد تقدمه بأفق مفتوح:

"جبت شوارع لندن يحتلني الحزن، ويسكنني الألم، وكلما قلبت في سنوات حياتي لا أرى إلا قوافل الشهداء، هناك من قتل واقفًا، ومن استشهد حرقًا أو دهسًا أو خنقًا.

دومًا نصل عند الظهر،

برائحة الخيانة." (نفسه. ص: 239)

يقدم هذا المقتطع الأخير من السرد تأيينًا للثوار، وآخرهم ناجي، بيد أنه لا يقدم في الآن نفسه تأيينًا للثورة كما ينبغي أن نفترض عند ختام سرد ثورة مهزومة، بل يفتح أفقها حين يجعل هزيمتها لصيقة بالخيانة، وحينئذ لنا أن نفترض أن انتصارها موكول بالتخلص من الخيانة؛ ولذا يبقى السرد على هوية ذات (مثال) دون تغير.

ما سبق كان توضيحًا لمراحل تحرك السرد بتسريد (مثال) وعلاقتها مع (علوان)، وتسريد مسار الثورة أيضًا، وتوضح المراحل مجتمعة هوية ثابتة لكلا النموذجين (مثال)، و(علوان)، بصفتهم علمين على صنفين مختلفين، الأمر الذي ينعكس على هويات الذوات في الخطاب جميعًا بناء على انتمائها إلى صنف منهما، فعند تتبع الصنف الأول نجد جميع الذوات بهوية منسجمة واحدة، هوية ثائرة لم تتزعزع على الرغم من انحدار الثورة نحو الهزيمة، ففي الحين الذي ينهي السرد بعض الذوات حين الهزيمة بالاستشهاد، كما في (جعبوب) و(رغبيت) و(ناجي) مثلًا، يبقى على الذوات الأخرى حتى نهاية السرد ملتزمة فكريًا تجاه إرث الثورة، كالحوار الذي نلفيه عند لقاء (مثال) بابنها (سانلي) وأختها (میزون) في مسقط (نفسه. ص: 220) معبرًا عن التمرد على إرث القبيلة، إحدى القواعد الأساس التي تقوم عليها الدولة الحديثة، والتي كانت الثورة جاءت لتجاوزها.

وفي المقابل يقدم الخطاب ذوات الصنف الثاني بلا قيم ثابتة، ميالة إلى الجشع والاستغلال والخيانة، منذ مفتح مسار التوتر بخيانة (علوان) لزوجته (مثال) مع (محببت) زوجة جاره، وصولًا إلى ثمالة (علوان) في قصره الجديد وسط نسائه العديداً وخدمه، وفساد الرجل الإنجليزي في شركته العقارية.

من المفيد هنا أن نلتفت إلى أن السرد يعيد في الفصل (43) التذكير بالعبارة الأساس للتوتر في حوار بين (مثال) و(علوان):

"وقبل أن ينهض مغادرًا التفت نحو هاميًا:

- ألم أقل لك إن ريح الشمال تغلب ريح الجنوب.

ضحكت وأنا أخبره:

- ألم أقل لك: إن ريحك ليست سوى ريح مزابل ونفايات، ريح زنازين ومعتقات، فأين هذه من ريح الجنوب، ريح النسيم العليل

والعاصفة الضروس." (نفسه. ص: 167-168)

إن استراتيجية التأكيد هذه تأتي في سياق تأكيد مسار السرد في توتره الذي يريده كامنًا، وفي الآن نفسه منتصرًا للثورة المهزومة عسكريًا، حيث ينتصر الخطاب لصنف دون صنف، مستغلًا القدرة الطبيعية في ختام الحوار على إقرار ما فيه من مدلول، وهو مدلول انتصار روح الثورة بما فيها من سمو.

## 4. الميتمة خطاب

توحي محصلة هذا التقابل في هويات الذوات ونهاياتها السردية أن الخطاب يعكس نهاية الثورة، ففي الحين الذي يقدم فيه السرد نهاية لها بالهزيمة؛ فإنه يجعل الهزيمة هزيمة لوجودها العسكري المنظم، بيد أنها تبقى كامنة في هويات ذوات الصنف الأول، بل ينقل الهزيمة من مفهومها العسكري المادي إلى الهزيمة الروحية التي يلبسها ذوات الصنف الثاني التي باءت إلى التيه والثمالة بالكحول والغرق في ملذات النساء والفساد.

قد سبقت الإشارة إلى أن الخطاب في هذه الرواية ينطلق من مسلمة ممارسة سلطة معرفية في سياق معرفي متعلق بمرحلة الثورة شبه فارغ؛ ولذا فإنه ينطلق واعياً بالدور الذي عليه القيام به، مستبطناً أيديولوجيا الثورة نفسها كما يصرح بوقفات البوح التي أشرنا إليها مراراً، بما فيها النقد الفكري الذي ورد في مواضع عدة من الرواية؛ إذ على الرغم مما قد يوحي به هذا النقد الموجه للثورة من موقف معارض لها؛ فإن "الأيديولوجيا تعمل من خلال إخفاء طبيعتها، والتظاهر بأنها غير ما تبدو عليه" (فيركلف، 2016، ص: 130)، حيث يستبطن خطاب النقد خطاباً مقابلاً بالدعوة إلى الأيديولوجيا نفسها، أي الدعوة إليها خالصة من الأخطاء التي ينقدها.

من المهم عند قراءة خطاب هذه الرواية أن ننتبه إلى ما فيه من تناقضات، فنحاول "إخراج لعبتها إلى واضحة النهار، وإبراز الكيفية التي يفصح بها الخطاب عنها، أو يسترها عن الأنظار" (فوكو، 2015، ص: 140)، وهي وإن كانت ليست بالضرورة تناقضات يتقصدها الكاتب بين الخطاب نفسه وميتمة الخطاب الذي يحمله؛ إلا أن مسار السرد الذي حللناه مؤثر عليها، سواء في مراحل حركته الأربع بين التوتر والسكون بقرنه تسريد (مثال) بتسريد الثورة نفسها، أو حتى في تغييب الذوات التي عبرت مع مسار الثورة من الصنف الأول إلى الصنف الثاني، حيث تجنب تسمية هذه الذوات العابرة التي تخلت عن مسار الثورة عند بداية الانحدار نحو الهزيمة، ولم يفسح لها عبر مسار السرد سوى حضور خافت، كان أقصاه حوار سريع دار بين "رفيق قديم" و(مثال) يبحثها على الاستسلام: "أنت تلعبين لعبة قديمة انتهى زمانها ومكانها... إذا كان الأمر يتعلق بالجنرال علوان؛ فإنه يستطيع أن يسحقك كمنلة لو أراد." (الزبيدي، 2013، ص: 162) خصص الخطاب الفصول (14) و(17) و(18) و(50) كمساحات بوح لنقد الثورة، مقدماً بذلك مساراً مهماً لتشكيل ميتمة الخطاب الذي تحويه الرواية، يضاف إلى توقفات البوح التي تأتي عبر مسار السرد نفسه المشار إليها في التحليل، ويمكن أن يشكل الفصل (5) أول علامة على وضوح ميتمة الخطاب. نقرأ فيه:

"في هذه الأجواء، تسلل رجل عبر الحدود مع اليمن قاطعاً طريقاً طويلاً إلى مرباط، كان هذا الرجل يحمل صندوقاً، صندوقاً سحرياً يتكلم ويغني، وتقاطرت السهول والجبال لرؤية وسماع هذا الساحر الجديد، أسقط في يد العرافات، وساد صمت ساحرات خور روري، كان الصندوق يهتف بلسان الساحر الجديد: "ارفع رأسك يا أخي فقد ولى عهد الاستعمار..." (نفسه، ص: 21)

يقدم هذا المقتطع ربطاً بين السياق الزمني والمكاني لبداية السرد، وبين أيديولوجيا الثورة، وهو ربط انسجام لا يفصح فيه الخطاب عن موقفه النقدي الذي سيتبدى لاحقاً، مسوغاً بذلك شرعية انبثاق فكر الثورة في ظفار بوصفه خطاباً يناغي النزوع الطبيعي لدى شعب ظفار نحو الحرية ومشاعية الحياة والتخلص من الاستعمار المؤيد لـ"سلطنة الظلام" (نفسه، ص: 164-165).

## 5. خاتمة

تمثل رواية (امرأة من ظفار) أوج الخطاب الأيديولوجي الذي تستبطنه تجربة أحمد الزبيدي، سواء من جهة اتساع مساحة البوح في توقفات السرد، أو من جهة تكريس ما جاء في سابق التجربة، وبخاصة حال مقارنة هذه الرواية بسابقتها، رواية (سنوات النار) الصادرة عام 2012، وكأننا أمام رواية (امرأة من ظفار) تقول خطاباً يراد له أن يكون أكثر وعياً بمرحلة الثورة، وأكثر صراحة في مقاربتها فكراً

وسردًا، إذ في الحين الذي كان تسريد الثورة في (سنوات النار) يتغى مقارنة موضوعه (العبودية) وعلاقة المجتمع بها؛ يقدم الخطاب تسريد الثورة في (امرأة من ظفار) غاية في حد ذاته لبناء الوعي بها، بصفتها تابوها مسكوتًا عنه، يراد لهذا الخطاب أن يقتحمه فيملاً بياضات السرد الجمعي له؛ بيد أن المسار الذي يختطه ميتا الخطاب في الروايتين يبدو متشابهًا إلى حد بعيد، حتى في انتهاء السرد إلى فتح أفق آخر للثورة يخلصها من وصمة الهزيمة، فكما سبقت الإشارة إلى ذلك في معرض تحليلنا لخطاب (امرأة من ظفار)، فإنه يمكن الوقوف على شبيهه له في (سنوات النار): "يجب على الثورة كما الموجة أن تجدد نفسها" (الزبيدي، 2012، ص: 182)، أي أننا بإزاء خطاب واع بمساره الأيديولوجي، كما هو واع أيضًا بميتا الخطاب التي يريد من المتلقين استهلاكها، مستندًا إلى سلطة المعرفة التي يمتلكها، كما إلى سلطة التخيل التي تكفل له حق اقتحام التابو.

#### قائمة المراجع

- التكريتي، عبد الرزاق. (2019). ظفار: ثورة الرياح الموسمية. تر. أحمد حسن المعيني. بيروت: دار جداول
- الزبيدي، أحمد. (2012). سنوات النار. بيروت: دار الفارابي
- الزبيدي، أحمد. (2013). امرأة من ظفار. بيروت: دار الفارابي
- العكري، عبد النبي. (2014). التنظيمات اليسارية في الجزيرة والخليج العربي. البحرين: دار فراديس
- فوكو، ميشيل. (2015). حفريات المعرفة. تر. سالم يفوت. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي
- فيركلف، نورمان. (2015). الخطاب والتغير الاجتماعي. تر. محمد عناني. القاهرة: المركز القومي للترجمة
- فيركلف، نورمان. (2016). اللغة والسلطة. تر. محمد عناني. القاهرة: المركز القومي للترجمة
- وزارة الإعلام. (2015). كلمات وخطب حضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم. مسقط: وزارة الإعلام
- ***Skeet, Ian. (2000). Oman: Politics and Development. Great Britain: Antony Rowe***